الحداثة ... بين الدلالة الفكرية والأدبية

د. ماجدة حمود

تعريف الحداثة:

حين نتأمل الدلالة اللغوية للحداثة؛ نجدها مستمدةً من جذر (حدث) الذي يوحي بالحركة والتجدد، وهذا ما يوضّحه لنا معجم "لسان العرب" لابن منظور "الحديث: نقيض القديم، والحدوث: نقيض القُدمة، حدث الشيء يحدث حدوثاً وحداثة، وأحدثه هو، فهو محدث، وكذلك استحدثه... والحدوث كون شيء لم يكن، وأحدثه الله، فحدث، وحدثَ أمر: وقعَ..."(1)

حين نتأمل هذا التعريف الدلالة اللغوية والدلالة الفكرية في تجديد الرؤية النظرية، الذي لن يكون إلا بتجسيدها على الأرض! ترى هل استطعنا أن نحرر عقولنا ونجدد أنفسنا بتحديث فكرنا؟ هل استطعنا أن نجسّد ذلك في أفعالنا؟ هل تخلصنا من بلاء "يقولون ما لا يفعلون"؟

أعترف بأنه لا ينقصنا مفكرون مخلصون، دعوا للحداثة، وعملوا من أجلها (طه حسين، زكي نجيب محمود، جورج طرابيشي، محمد أركون، محمد عابد الجابري...) انفتحوا على الآخر الغربي؛ ليسهموا في إنقاذ واقعهم على أسس معرفية، تعلي شأن العلم، وقد شاركهم في تلك المهمة نقاد وأدباء، استطاعوا أن يعيشوا الحداثة في كتاباتهم، فأبعدوا دلالتها عن السطحية، ورفضوا أن تكون حداثة الشكل على حساب المضمون! وبذلك رفضوا ما يسود مجتمعنا العربي من استعراض فكري، بات يتباهى بفكر مستورد، مثلما يتباهى بسيارة حديثة أو جوال!

إننا ما زلنا نتيه في البحث عن تجليات الحداثة في حياتنا، فلا نجد سوى اجترار لكل ما هو مألوف وتقليدي سواء لدى الذات العربية أم لدى الآخر الغربي!!!

لعل هؤلاء النقاد أول من أدرك أنه لا يمكننا أن نعزل الدلالة اللغوية لمصطلح الحداثة، عن تأثيرات السياق التاريخي، فقد بدأ العرب يتلمسون حاجتهم إليها، حين وجّه الغرب مدافعه نحو أرضهم (احتلال نابليون لمصر، ثم إنكلترة...) قبل مئتي عام أو أكثر! فكان مشروع (محمد علي) التحديثي في مصر رداً على الهوة الفاصلة بين الشرق والغرب؛ لذلك انتبه إلى أهمية بناء مجتمع حديث على أسس علمية وصناعية؛ فأرسل بعثات تعليمية إلى فرنسا للاستفادة من علومها، كما بدأ الغرب في المقابل بإرسال بعثاته

التبشيرية إلى الشرق، التي كانت مشوبة بغايات استعمارية، يكفي أنها سعت إلى التمييز بين أبناء الوطن الواحد!

من هنا يمكننا أن نلاحظ أن دلالة الحداثة، كما يقول د. محمد عابد الجابري ترتبط "**بالظواهر التاريخية**" لكن تجلياتها، تختلف من مجتمع لآخر، لكونها تمتلك خصوصية، تجعلها تتأثر ببيئتها الثقافية ومرحلتها الزمنية، فهي مثل كل الظواهر التاريخية محكومة "**بظروف محددة بحدود زمنية، ترسمها الصيرورة على خط التطور، فهي تختلف إذن من مكان لآخر، ومن تجربة تاريخية لأخرى، الحداثة في أوروبا غيرها في الصين، وغيرها في اليابان... في أوروبا يتحدثون اليوم عن "ما بعد الحداثة" باعتبار أن الحداثة ظاهرة انتهت مع نهاية القرن التاسع عشر...** "(2)

هنا ثمة سؤال يطرح نفسه: هل التفت المثقف العربي إلى خصوصية مجتمعه؟ هل أدرك أننا لا يمكن أن نطبق حداثة الآخر في بلادنا بطريقة آلية؟ تُرى أين أبدع العرب وأين أخفقوا؟

من أجل الإجابة سنتوقف في البداية متأملين الحداثة الفكرية:

إن الحداثة تبدأ أولا من القدرة على التفكير بطريقة حرة وجديدة، فتستجيب لظروف تاريخية وثقافية...الخ، تشجع، غالباً، على العيش وفق نظم، لم تعرف من قبل؛ مما يشعل الحماسة لابتكار أساليب حديثة من أجل العيش والتعبير عن الذات، يوحي باستيعاب إيقاع حياة، لم تعرف من قبل؛ تقدّم عوالم جديدة بدأت تفرض وجودها في الواقع، أو تحثّ المرء على التعرّف عليها، مثلما تحثّه على الحلم بها، وبذلك تبدو الحداثة عملاً دؤوباً وإصراراً على المعرفة؛ لتحقيق ما نرغب به!

وقد بيّن لنا (جان بودرياد) دلالة الحداثة، فهي "**أخلاقية مقننة للتغيير، تتعارض مع الأخلاقية المقننة للتقليد، لكنها تحترس مع ذلك من كل تغيير جذري...**"(3)

وبذلك يلاحظ المتأمل أن دلالة الحداثة لدى الغربيين، توحي بالحذر من أي تغيير جذري، يدمر الجسور مع التراث، وبذلك فإن أية حداثة، سواء أكانت في الغرب أم في الشرق، لا يمكن أن تبدأ من الصفر، كما يظن بعض أدعياء الحداثة العرب!

إذاً ثمة رؤية عميقة تدفع المثقف الغربي إلى منح مفهوم الحداثة بعداً دلالياً غنياً، إذ لم يربطها بلحظة تاريخية، يعيشها، وإنما جعلها تنتمي إلى إنجازات كل العصور؛ وبذلك كان الحكم هو النظر إلى محتواها، فقد يكون حداثياً رغم انتمائه إلى زمن مضى!

أما عن علاقة الحداثة بالثورة، فتتجلى، هنري لوفيفر، حين تتعمق في روح الإنسان، لترتقي به؛ لهذا لابد أن تستعين بـ(**الفن والأخلاق**) وبما يطوّر وعيه من (**أفكار وأيديولوجيات**) عندئذ تجدّده؛ لكونها مصحوبة بـ(**الحركية، وأشكال التحرر المختلفة**) مما يؤدي إلى ظهورها في صيغ (**ثورة دائمة في الأشكال**) لأن هذا يعني إبداعاً، يستطيع ممارسة (**لعبة التغيّر**) وبالتالي لعبة الإدهاش، وبذلك يستطيع الحداثي أن يغلق (**الثغرة المفتوحة في عالم التقاليد**) أي يبتعد عن التكرار واجترار المألوف؛ لينجز فكراً إبداعياً، ينطق بخصوصيته الثقافية، مثلما يلبي حاجاته الروحية والفكرية، كي يستطيع مواجهة تحديات جديدة، يفرضها عصره!

لهذا لم يستطع كثير من روّاد المنابر اليوم التمييز بين المظاهر الجديدة، وبين الحداثة، التي تعني النهضة الفكرية والروحية والأخلاقية والعلمية، وهذا ما يلاحظ لدى بعض المشايخ في البلاد العربية (مثل عوض بن محمد الفراتي) الذي يقرّ بأهمية اختراعات الآخر الغربي، أما التفكير الحداثي الذي يقوم (العقل النقدي) فمنبوذ؛ لهذا يعلن هذا الشيخ أهمية الابتعاد عن الفكر الغربي "**بشقيه الليبرالي والأممي الشيوعي، أما استيراد ما عدا ذلك من الزر وحتى السيارات الخرافية وأحجار القصور وأثاثها، وأجهزة التسلية فيها، وأشكال المتعة فكله مباح، ولا ضرر منه**" وبذلك يرضى باستيراد كل ما يعزّز القيم الاستهلاكية، التي تدمر جوهر الإنسان، وتحتفي بكل ما يتعلق بمظهره! وهذا يتيه منا المعنى الحقيقي للحداثة، الذي هو تغيير وتجدد في الروح والفكر والعمل!

كما يلاحظ أن ثمة فكرة مسبّقة، تعشّش في الذهن العربي، وهي ربط الحداثة بالغزو الثقافي الغربي، بل نجد هذا الفكر يربطها بحروب تاريخية بين الشرق والغرب، ولّدت سوء تفاهم وكراهية، عزّزها الغزو الاستعماري لبلادنا في العصر الحديث؛ فيغضون الطرف عن منجزاته ويتوقفون عن سقطاته، وهم بذلك يريدون الحفاظ على مجتمعهم في حالة سُبات، كي يتمكنوا من الحفاظ على مصالحهم ومكتسباتهم؛ لهذا يرون في أية فكرة جديدة، تثير قلق ثوابتهم، التي يطمئنون إليها، فهي تزيد من قوة قبضتهم وهيمنتهم، حتى إنهم يظنون أي تغيّر فيها دماراً لمعتقدهم الديني، يمهد الطريق للنيل سلطتهم السياسية ومكاسبهم المادية!!!

يلاحظ أن موقف المثقفين العرب العلمانيين من الحداثة وعملية التحديث ليس بأفضل من هؤلاء التقليديين، فقد وجدنا أحد رواد الحداثة العرب (سعد الله ونوس) يمارس نقداً ذاتياً، فينتقد نظرتهم الضيقة لمفهومهالهذا ليس غريباً أن يتهم (سعد الله

ونوس) نفسه بالسذاجة، فقد "**كان التحديث– ويا لسذاجتنا نحن التقدميين– شعاراً شاقّاً وأحياناً شفافاً لإنجاز التبعية الكاملة للغرب**"

بدأ المثقف العربي بعد سلسلة النكبات والمآسي، التي عاشها، وما يزال، ينتبه إلى بعض عيوبه، فيمارس وعيه النقدي على ذاته أولاً، حيث يكمن التغيير الحقيقي، فمن لا يبدأ بنفسه، يراكم أخطاءه وأوهامه؛ مما ينعكس سلباً على حياته، وعلى المجتمع بأسره! وعلى هذا الأساس اعترف بضياع بوصلة الحداثة الحقيقية لديه، وذلك حين أطّرها ضمن إطار جامد، فباتت تعني لديهم (**التبعية الكاملة للغرب**) وبذلك أهمل كل ما يسهم في صنع خصوصيته، وذلك حين أهمل موروثه الأصيل! لهذا لم ينجز المثقف العربي حداثة حقيقية، بل بات يسهم في صنع كل ما هو مشوّه! لأنه اعتمد التقليد الأعمى للغربيين، وهذا ما سماه يحيى حقي بـ"**عقلية القطيع وطبع القرود**" وبذلك نستطيع أن نلاحظ أن ميزة المثقف الحقيقي، والفاعل، أنه قادر على النقد الذاتي؛ مما يتيح له معرفة عيوبه، وتجاوزها، الأمر، الذي يؤدي به إلى تطوير ذاته، ومن ثمّ تطوير غيره، ومن الملاحظ أن قلة من المثقفين العرب، مارست هذا النوع من النقد (زكي نجيب محمود، يحيى حقي، سعد الله ونوس...) في حين أن هذه الممارسة تكاد تكون سمة أصيلة لدى المثقف الغربي! لهذا نجده في تطوّر مستمر!

وقد وجدنا سعد الله ونوس يمارس وعيه النقدي في تلقي العرب للحداثة الغربية قائلاً: "**إن أمواج الحداثة الزائفة قد أربكت الفكر، وجعلته هو الآخر يتأمل نفسه في مرايا حداثية، ناسياً أن العصر في خسر، وأن الرؤية التحديثية، تنتظر من يعيد النظر فيها، ويرممها، أو يجددها فاتحاً بذلك ثغرة في هذا الجدار الكتيم، الذي نصبوه بيننا وبين المستقبل، إن إشكالياتنا ليست ذهنية، بل هي جروح نازفة وخراب لا تكف رقعته عن الاتساع**"

إن الإنسان العربي لم يستطع إلى الآن صنع حداثته الحقيقية، وبالتالي ما زال يسهم في تدمير حاضره ومستقبله! لعل السبب في ذلك أنه يعيش الماضي وأوهامه من دون أن يعيش واقعه، أو يخطط لما سيعيشه؛ لهذا وجدناه ينسى أن قيمة حياته، لن تتحقق بعيداً عن تقدير زمنه، الذي يعيشه (**في خسر**) وبذلك يمرّ أمامه هباء، من دون أن يهبه معنى أو قيمة، فهو أسير الربح المادي الآني، بعيد التفكير عن تحصيل أي ربحٍ معرفي، مع أن العرب أحوج ما يكونون إلى مثل هذا الربح؛ كي يتلمسوا طريق الحياة ومعنى الحداثة، التي لن تكون بالأمنيات ولا بالشعارات!

يلاحظ المتلقي، هنا، استناد ونوس في خطابه إلى الخطاب القرآني "**والعصر، إن الإنسان لفي خسر**..." لعله يسهم في هز الوجدان، أثناء التلقي، وتحريك الرغبة في تطوير الذات العربية، التي هي الأمل الوحيد في تحقيق حلم الحداثة!

ولكن هنا نتساءل: ألا نحتاج إلى بناء إنسان، يرى قيمته بما يملك من معرفة لا بما يملك من مال؟ أ لسنا بحاجة إلى مؤسسات تعلي شأن العلم وقيمة المثقف أكثر من بناء المراكز التجارية (المولات) التي تبهر البصر، وتستلب الوعي؟ ألسنا بحاجة إلى أجيال، تمتلك وعياً نقدياً في عصر تهيمن على العقول مبتكرات الشابكة (خاصة أدوات التواصل الاجتماعي) التي كثيرا ما تدمر الوعي، وتشيع الكراهية والتعصب، الذي عاشته بعض الشعوب العربية في السنوات الأخيرة؟ ألا نحتاج إلى شباب يقاوم الكسل، ويدرك قيمة الحياة، فيحارب إحباطه بالعمل وبالمعرفة، كي يمتلك إرادة التغيير والتحديث؟ ولكن هل يمكن أن نفعل ذلك كله، إلا إذا أدركنا قيمة الزمن، وأنه لا يتوقف بجمودنا وتخلفنا؟ أ لسنا بحاجة إلى إدراك أن "**قيمة كل امرئ ما يحسن**" كما يقول الإمام علي بن أبي طالب، كرّم الله وجهه؟ ألا يعني هذا القول بأن قيمة كل إنسان ما يقدّمه للآخرين من عمل وإبداع؟ وهل يمكن هذا دون استثمار صحيح للوقت؟ تُرى ألا نحتاج اليوم إلى إنسان قادر على التجدّد والحركة؛ كي لا يستمر في حياة أشبه بالموت؟ أين معنى الحياة، حين نبعدها عن قيم التجدد والتطوّر!؟

لم يعد أمامنا من خيار سوى أن نعيش الموت، حين نستسلم إلى ضعفنا وجهلنا، أو نعيش الحياة، حين نسعى إلى الحداثة، أي نعيش التقهقر أمام تقدم الزمن، أو الاندفاع باتجاه زمن جديد، يتميز بالمعرفة والحركة، فما يهمنا هو "الحيوية وليس الحياة الأبدية" على حد قول نيتشه! إذ ما نفع أن نعيش عمراً أبدياً أو مديداً لا إنجاز فيه ولا تغيير؟ وما نفع أمة تعيش أمجاد الماضي، ولم تستطع أن تتحرك لتنبذ تخلفها، وتنجز نهضتها؟ أ ليس هذا بسبب أنها لم تعِ أهمية التطور مع الزمن؟ فهي تتراجع مع تقدمه؟ ألا يتوجّب علينا اليوم أن نثبت بأننا أبناء هذا الماضي، الذي سجلت فيه الحضارة الإسلامية الكثير من الإبداعات، التي كانت ركيزة للنهضة الغربية!

يكفي، هنا، أن نشير إلى أن حلم بالنهضة، الذي عمل من أجله أجدادنا قبل وقت قصير (حوالي مئة عام لا ألف وأربعمئة عام) من أمثال (الكواكبي، رفاعة الطهاوي، خير الدين التونسي، بطرس البستاني ...) يكفي أن نقارن بين القضايا الفكرية، التي تشغلنا اليوم، وتلك التي كانت تشغل هؤلاء الرواد، فقد كانوا يهتمون بكيفية تأصيل الحداثة في

حياتنا! فطرحوا أسئلة جوهرية، تمس حياتنا الفكرية والسياسية والاقتصادية، لا يجرؤ كثير منّا اليوم على طرحها!

وقد لفت سعد الله ونوس نظرنا إلى أن هؤلاء الرواد أدركوا أن النظم والأفكار الغربية "**لا تتعارض مع الهوية**" أي لا تتعارض مع قيم الأصالة، التي تهب المجتمع العربي خصوصيته "**لكنها تتعارض مع النظم الحاكمة والطبقة المتسلطة، التي تريد أن تحافظ على وضعها ومكاسبها**" فلا تجد أمامها سوى أن "**تلتحق بصفتها تابعاً للغرب**" كي يحميها، لكنها، في الوقت نفسه، تلجأ إلى النفاق، فتستغل قيماً وأفكاراً تقليدية، وتعتمد لغة خطابية رنانة، تدّعي "**الفصاحة والأصالة وسلامة العقيدة**، ..."

علينا أن نعترف بأننا مازلنا نعيش في مجتمع، تعشّش فيها قيم الخرافة والجهل والتواكل، وكراهية الآخر المختلف؛ مما يُنشئ أجيالاً أشبه بالعبيد، إذ نجدها تمتلك عقلاً سلبياً، يعجز عن الابتكار، الذي هو نتيجة الإخلاص في المعرفة والسير على هديها في صحبة عمل دؤوب! فقد نشأ جيل، يدّعي الثقافة، لكنه مع الأسف، يستسهل التقليد، فلا يعرف سوى التبعية للآخر التراثي أو الآخر الغربي!

علينا أيضاً أن نعترف مع (ونوس) بأن أحد أسباب ضياع طريق الحداثة لدى كثير من أجيالنا العربية، أنها لم تعش في مجتمع مدني، يحترم حرية الإنسان ومقدساته، يؤسس لبناء إنسان (**يوقّر العقل الإنساني، ويوفّر لمواطنيه الحرية والعدالة والمساواة**) فيسمح لغيره بالتعبير عن ذاته، مثلما يسمح لنفسه؛ وبذلك نلاحظ أن أحد أسس الحداثة، أنها تقوم على احترام الآخر المختلف؛ لكن للأسف مازلنا نلاحظ نفياً لهذا الآخر، وذلك حين نلجأ في حياتنا اليومية وفي ثقافتنا، التي تدّعي الحداثة، إلى نفي الحوار الهادئ البعيد عن التشدد والإرهاب الفكري، وهذا يعني أننا نعيش حداثة وهمية، تنبع من ثقافة القشور "**لأن ...سعة الصدر**" من أهم سمات المثقف الحقيقي، كما يقول يحيي حقي، لهذا نلاحظ لدى المثقف الحقيقي انسجام النظرية والتطبيق، فلا نسمع شعارات رنانة وخطب جوفاء، تتناقض مع أفعاله، وإنما نلمس حواراً هادئاً، يدافع فيه عن وجهة نظره، دون أن يفرضها، فيتحول هذا الحوار إلى نوع من الأخذ والعطاء، أي تبادل المعرفة ووجهات النظر، والاستفادة من الآخر المختلف بدلاً من قمعه! إذ لا أحد، يملك الحقيقة المطلقة!

إننا نلاحظ اليوم كيف أصاب الإحباط كثيراً من المثقفين العرب، الذين شغلتهم قضية الحداثة، فقد سعَوا إليها طويلاً، لكن هزمتهم كثرة النكبات، التي انهالت، وما

تزال، على أمتهم (نكبة فلسطين (1948) نكسة حزيران، الحرب الأهلية اللبنانية، احتلال عاصمة عربية عام 1982، الإرهاب...) تُرى هل استسلم بعضهم لهذه الهزائم؟ أم ثمة عوامل أخرى تجعل الحداثة حلماً، مازال ينفر من العرب؟

لعل السبب يكمن في رائد الحداثة (المثقف العربي) الذي ضلّ طريقه إليها! فنجده يهرب تارة إلى الغرب، كي يقلّده، أو يهرب تارة أخرى إلى الذات وتقديس الماضي!!!

إننا لا نستطيع التعميم، صحيح أن ثمة نماذج من المثقفين تهرّبت من حمل المسؤولية، فلم تخضع ذاتها أو الآخر الغربي للوعي النقدي، فباتت ممن يلعنون الظلام، دون أن يحمل شمعة، تنير له وللأجيال الطريق! لكن في المقابل ثمة نماذج مثل (طه حسين) وإن كانت نادرة، سعت إلى بناء مستقبل أفضل، وذلك عن طريق بناء إنسان حر وفاعل، يستطيع تغيير حياته؛ كي ينتقل من واقع، يلغي كينونته أي إنسانيته إلى واقع ينصاع إلى رغبته، المستمدة من عقله لا من هواه، عندئذ يصبح المستقبل مرآة وعيه وفعله، أي تجسيداً لرغبته في التغيير والتطور وفضاء لأحلامه وطموحه في عيش حياة أفضل...

لعل ميزة طه حسين أنه خير مجسد للمثقف الفاعل، الذي لا يرى نفسه معزولاً عن واقعه البائس، بل يحلم أن يكون بين جمهور واسع، يحسن القراءة والكتابة، وما دعوته الشهيرة إلى ديمقراطية التعليم، وضرورته للإنسان كالماء والهواء؛ لهذا لن نستغرب دعوته منذ وقت مبكر إلى إصلاح الجهاز التعليمي، الذي يعدّ خير دليل إلى طريق الحداثة؛ لذلك جسّد لنا مفهوم المثقف الحقيقي، الذي يحاول أن يجسّد أفكاره فعلاً وقولاً، فهو، على حد قول د. فيصل دراج، خير مكافح من أجل شكل جديد، يسمح بوعي جديد أو ثقافة جديدة، تنقل المتعلم من وضع الامتثال إلى المألوف والفكر العاجز والمعتقل إلى وضع التمرد والفكر الفاعل والمطوّر.

علينا أن نعترف بأننا اليوم ما زلنا أبعد ما نكون عن هذا الطموح لطه حسين؛ فقد باتت الحداثة هماً نملك إمكانياته، لكننا لا نستطيع إنجازه؛ إذ مازالت حلماً، يرافق كل مثقف، يرغب في أن يكون فاعلاً، في وطن، يمزقه التخلف والجهل والإرهاب والمظاهر الاستهلاكية و...إلخ؛ لهذا يبحث عن صوى، تهديه إليها، أي يبحث عن طريق، يسلكه؛ كي يجسّد رؤيته التحديثية على أرض الواقع!

إذاً ثمة مسؤولية، يحسها المثقف العضوي، أثناء محاولته الانتقال من مرحلة تنظير الحداثة، التي قد تكون سهلة، إلى مرحلة تجسيدها في واقعنا العربي، التي ستكون مكافئة للمعاناة والنبذ والموت...لكن هذا المثقف، يندفع إلى أداء مهمته، مهما كان الثمن، لكونه يدرك أنها خير وسيلة، نقضي بها على الدمار، الذي يحاصرنا، مثلما هي خير وسيلة نقضي بها على الذل، الذي خلفته هزائم متوالية، فهي طريق التغيير، الذي ينبع من داخل الأمة نفسها، وذلك لن يكون إلا حين يبدأ الإنسان بتجديد نفسه أولاً، إذ "**إن الله لا يغيّر ما بقوم، حتى يغيّروا ما بأنفسهم**"(سورة الرعد/ آية 11)

إذاً كي نجدد مجتمعنا، ونتجه به نحو الحداثة، علينا أن نبدأ أولاً بتجديد أنفسنا، فنؤسس بذلك لتفاعلاتها الداخلية والخارجية بالمعنى القومي والمعنى الفردي.

الحداثة الأدبية:

إذاً ما نحتاجه اليوم وعياً بأهمية الحداثة في حياتنا بكل تطلعاتها وأسئلتها المقلقة، فهي تطرح تحدياً أمامنا: كيف يمكننا تحقيق ذواتنا على نحو إبداعي؟

كيف نسلك سبل الأصالة الفكر والأدب، ونبتعد عن تقليد الآخر؟ كيف نجعل الانفتاح على المعرفة والحكمة ضالتنا، حيثما وجدناها، نحن أحق بها؟ ...إلخ

إننا نبتعد، اليوم، عن إنجاز معرفة فاعلة ومؤثرة في واقعنا؛ فننبذ الفكر النقدي، الذي يستطيع تجديد فكر الإنسان، عندئذٍ يسهم في تجديد اللبنة الأولى في هذا المجتمع المتخلف! كي لا تتحول كثير من الآراء الحديثة إلى ركام من القوالب الجاهزة (الكلائش) التي تحاصرنا، وتعود بنا إلى الوراء، وبذلك لا تساعدنا على أن نشق الطريق عبرها، إنها تصبح مكافئة لـ"**لموات الفكري، الذي تطفح به المجلات والجرائد** ..." فالحداثة تحتاج إلى تجديد الروح والعقل والإحساس، كي يستطيع المرء العيش بعيداً الجمود، فيكون الإبداع في الأدب تحرّراً واستشرافاً للجديد، بعيداً عن التكرار، وكل ما يلغي العقل والإحساس بالجمال؛ وهذا لن يكون إلا بشرط تقدير الموروث والمبتكر في كل مذهب جديد، لكن زعماء المذاهب، كما يقول يحي حقي، شأن كل محدث نعمة، مجبولون على الزهو والثرثرة الصاخبة، في حين يحس المبدع بفضل الحداثة برغبة في الطموح إلى الأحسن، فيحاول إنتاج إبداع أكثر إدهاشاً، على كل المستويات، وهذا لن يكون إلا حين يجتمع لديه الإخلاص في الجهد مع الصنعة الفنية المحكمة، التي تجعل العمل أقرب إلى العفوية! لذلك نجد المبدع يعتمد على عقله ومنطقه اللاواعي، مما يفسح المجال لتفتّح أحاسيسه وأفكاره، ومن ثمّ ينطلق في التعبير دون قيود، تحاصره!

ثمة رغبة لدى الناقد، الذي آمن بالتغيير والنهضة، في دمج الحداثة في حياتنا، فتسهم، عندئذ، في تطوير واقعنا، كما تسهم في تطوير أدبنا، لهذا رأى في الحداثة الشعرية قوة أخرى من قوى التغيير في المجتمع، فالقصيدة الحديثة، في رأيه، "**شهادة الشاعر على تجربته المتفردة بتفرد ذاته والملأى، في الوقت نفسه، بأصوات زمانه.**"

إن الانفتاح الواعي على الآخر والذات معاً، لن يؤدي إلى الضياع، برأيي، بل يؤدي إلى نوع من الاستقلال الفكري والانفتاح الإنساني، لذلك بات على النقاد العرب أن يصلوا إلى مرحلة إنقاذ الأدب، وذلك بالانتباه إلى خصوصيته، كي يستطيع مخاطبة مجتمعه، فلا يهمل قيماً وأخلاقاً، توارثها أبناؤه، ويعتزّون بها، خاصة تلك التي تشكل سمات شخصيتنا الأصيلة والفاعلة.

يلاحظ المتأمل أن الاهتمام بتحديد مفهوم الحداثة، شارك فيه مفكرون ونقاد أدب، مارس بعضهم الإبداع الشعري والروائي، إذ أرّقهم السعي إلى تأسيس رؤية جديدة في الإبداع الأدبي، يتبناها معهم الأدباء! لذلك نجد (أدونيس) مثلاً يميز بين مصطلح الجديد ومصطلح الحديث، إذ يرى أن للجديد معنيين: الأول "**زمني**" الذي يعني "**آخر ما استجد**" وبذلك يقطع صلته بالماضي، أما المعنى الثاني فهو "**فني**" يوحي بأنه "**ليس في ما أتى قبله ما يماثله**" أما مصطلح "**الحديث فذو دلالة زمنية، ويعني كل ما لم يصبح عتيقاً**...**وهكذا قد تكون الحداثة في القديم، كما تكون في المعاصر**"

ثمة فهم أصيل ومعاصر لمفهوم الحداثة، لدى مثقف مارس الأدب والنقد معاً، وأدرك المعنى الحقيقي للإبداع، الذي قد ينتمي إلى التراث، وينتمي في الوقت نفسه إلى زمننا المعاصر! وبذلك يلاحظ المتأمل أن تأسيس الحداثة الفكرية مقدمة للحداثة الأدبية، إذ إن الرابط بينهما هو الإبداع، فحين نبدع فكرياً لابد أن نبدع فنياً؛ لهذا يعدّ المثقف المبدع أحد رواد الحداثة في مجتمعنا العربي، بل يلاحظ أنه استطاع أن ينجز على صعيد الإبداع في الأدب (الشعر، الرواية، وبدرجة أقل المسرح) ما لم يستطعه المفكر العربي، ربما لكون الأجناس الأدبية، تمتلك جاذبية التلقي والتفاعل، أكثر من الفكر والفلسفة! ولعل هؤلاء الأدباء امتلكوا رؤية للحداثة أعمق، إذ اتكؤوا على إبداع، يعتمد الخصوصية، في حين نجد أدعياء الثقافة والفكر في مجتمعنا، مازالوا متخلفين عنهم، يجترّون أقوال الآخرين (سواء أكانوا أبناء الماضي أم أبناء الآخر الغربي) فقد امتلك كثير من هؤلاء الأدباء منذ بداية حياتهم وعياً بأهمية الحداثة، حتى جعلوها محور تفكيرهم وإبداعهم، فقد تحمّسوا

لحمل مسؤوليتهم في مواجهة تخلف، بات ينهش أمتهم منذ قرون طويلة؛ لهذا بذلوا جهدهم من أجل تخطيه!

من هنا بات مرفوضاً تكرار نماذج غربية باسم الحداثة، أو نماذج تراثية باسم الأصالة، إذ إن مثل التكرار، يعني إلغاء الذات، وتقليد الآخر المتفوق، سواء انتمى إلى الغرب أم إلى التراث؛ وبذلك يخفي المفكر والأديب عجزاً أو عدم إمكانية التواصل مع الآخرين على المستوى الإبداعي! فالحداثة تعني الالتصاق بالناس والإحساس بمعاناتهم ومعرفة مشاكلهم وهمومهم، وبذلك يتوجب على المبدع وعي متطلبات عصره، وأن يلمّ بأفكار وتيارات وإنجازات، تتحقق في أية ثقافة، سواء أكانت شرقية أم غربية، بهذه الطريقة يكون المثقف (المفكر، الأديب...) أحد المشاركين في فتح بوابة الحداثة الحقيقية، إذ يتمكن من خلق وعي جديد وذائقة جديدة، فيكون فاعلاً في حياة، يؤطرها زمن سرعان ما يمضي، ويحفظ الفعل، ربما، أكثر من القول!

إن الحداثة الأدبية جزء من الحداثة الفكرية، فهي تعزز امتلاك رؤية ذاتية، تنفتح في الوقت نفسه على هموم العصر وقضايا الإنسان؛ لهذا كله وجدنا كثيراً من المفكرين (العرب والغربيين) يتفرغون لفن الرواية، إذ وجدوها، بسبب اتساع صدرها لكثير من الفنون والأفكار، أكثر تعبيراً، عما يعتلج في أعماق الإنسان من أفكار وخيالات ومشاعر، فهي بذلك تستطيع أن تجسد بأساليب عدة رؤى معاصرة وأصيلة حلم التغيير والحداثة، لهذا لا أدري إن كان يحق لنا القول بأن المثقف العربي أنجز حداثته على الصعيد الأدبي، الذي ينطق بالخصوصية، في حين لم يستطع ذلك على الصعيد الفكري والاجتماعي والاقتصادي، فعجز عما فعله المفكر الياباني والصيني!

***

الحواشي:

1. ابن منظور، "لسان العرب" /2 ص130
2. د. محمد عابد الجابري "التراث والحداثة" دراسات ومناقشات، مركز الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1991، ص16
3. جان بودرياد، ترجمة: محمد سبيلا، قضايا وشهادات، الحداثة (2) مؤسسة عيبال، نيقوسيا، شتاء/ 1991، ص386
4. انظر قضايا وشهادات: الحداثة"(1) كتاب دوري، مؤسسة عيبال للدراسات والنشر، نيقوسيا، صيف 1990